نظرية المقاصد بين حازم القرطاجنّي
ونظريّة الأفعال اللغويّة المعاصرة

فـــــداق بلقاســـــــم

جامعة البليدة 2-

لا يخفى ما للمقاصد والمنازع من أهمية في دراسة الخطاب اللغوي، فهي تسمح للدارس بأن يكوّن فكرة واضحة وعميقة، عن مضمون الخطاب، وفعالية تأثيره في المتلقي.

لم تلبث الدراسات اللسانية المعاصرة أن وجهت اهتمامها إلى النصّ الأدبي والخطاب الشعري ،فتناولت فيه مسألة المقصدية والمنزع بطرق مختلفة.

وإذا عدنا إلى النقد العربي،نجد مفهومي المقصدية والمنزع مشارا إليهما بطرق تتفاوت وضوحا وخفوتا لدى القدماء، وإن كانا لا يردان بهذه الصورة الاصطلاحية دائما.

وإذا وصلنا إلى حازم القرطاجني، وجدنا المفهومين يحتلان مكانة مركزية في تحليله للخطاب الشعري، ولما كانت القضايا المتعلقة بهذين المفهومين من التعقيد والتداخل والتشعب،ارتأينا تفصيل الحديث في جزئية من جزئيات الموضوع من خلال ما يلي:

- طرق التصرف في مقاصد الشعر وجهاته.
- أقسام الشعر باختلاف أنحاء الخطاب.
- قضية التواصل الأدبي ووضعية المخاطب أو المتلقي.
- قضية المقاصد والأفعال اللغوية في الخطاب الأدبي.

الكلمات المفتاحية:

المقاصد، المنازع، الأفعال اللغوية، النوايا العامة، النوايا الخاصة، وضعية السّياق، الرسالة المباشرة، الخطاب غير المباشر...

تمهيد:

لا يخفى ما للمقاصد والمنازع من أهمية في دراسة الخطاب اللغوي، فهي تسمح للدارس بأن يكوّن فكرة واضحة وعميقة، عن مضمون الخطاب، وفعالية تأثيره في المتلقي.

لم تلبث الدراسات اللسانية المعاصرة أن وجهت اهتمامها إلى النصّ الأدبي والخطاب الشعري ،فتناولت فيه مسألة المقصدية والمنزع بطرق مختلفة.

وإذا عدنا إلى النقد العربي،نجد مفهومي المقصدية و المنزع مشارا إليهما بطرق تتفاوت وضوحا وخفوتا لدى القدماء، وإن كانا لا يردان بهذه الصورة الاصطلاحية دائما.

وإذا وصلنا إلى حازم القرطاجني، وجدنا المفهومين يحتلان مكانة مركزية في تحليله للخطاب الشعري، ولما كانت القضايا المتعلقة بهذين المفهومين من التعقيد والتداخل والتشعب،ارتأينا تفصيل الحديث في جزئية من جزئيات الموضوع من خلال مايلي:

-طرق التصرف في مقاصد الشعر وجهاته.

-أقسام الشعر باختلاف أنحاء الخطاب.

-قضية التواصل الأدبي ووضعية المخاطب أو المتلقي.

-قضية المقاصد والأفعال اللغوية في الخطاب الأدبي.

أولا: طرق التصرف في مقاصد الشعر وجهاته.

يجمل حازم الحديث في هذا الموضوع عن مجموعة من القضايا المتعلقة بتصرف الشعراء في مقاصد الشعر وجهاته.

1.جهات الأقاويل الشعرية عند حازم لا تخرج عن ضربين:

أ-" ضرب يقع في الكلام مقصودا لنفسه، وهو ما كان له بالغرض المقول فيه علقة وله إليه انتساب بوجه يوجب ذكره"[1].

هذا الضرب واضح لأنه يشمل الشعر الذي ينفذ له موضوعا معينا واحدا، ثم يعرضه ويتحدث عنه مباشرة بدون حاجة إلى وسيط من معنى قريب للمعنى المراد.

ب-ضرب "لم يكن له بالغرض علقة، ولكن له علقة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض فيذكر تابعا لما ذكر معتمدا على جهة إحالة أو محاكاة أو غير ذلك. وقد يكون له بالغرض علقة إلاّ أنّه لا يذكر من حيث ما هو تابع لغيره ومتعلق به"[2].

صور هذه العلاقة متعددة منها:

- الإحالة: أن يرتبط الشيئان، لأنّ أحدهما يحيل على الآخر، بحيث أنّ الحديث عن الأول يقود إلى الحديث عن الثاني.
- المحاكاة: أحد الشيئين يشبه الآخر، وإذا تمت محاكاة الأول بالثاني فهم كلاهما، بحيث أنّ علاقة الشبه بينهما تجعل الإقدام على محاكاة أحدهما بالآخر، شيئا مقبولا ومفيدا على معرفة المحاكي.
- التبعية: وهي أن سكون أحد الشيئين تابعا للآخر في ناحية من نواحيه، بحيث إذا تمّ الحديث عن التابع، فهم من ذلك أوصاف المتبوع ومزاياه.

2. ألقى حازم نظرية على واقع الشعر العربي في زمنه،ثم على ماضي الشعر في الثقافة العربية، فاستنتج من ذلك أنه كانت للأوائل "عناية بتعليق الأوصاف بهذه الجهات الثواني، وذلك حيث يكون في قوة الكلام أن يعود من الأوصاف المتعلقة بالثواني ما يفيد مبالغة أو غير ذلك في الجهات الأوائل"[3].

من هنا يتضح إدراك حازم للسرّ في اتجاه الأوائل إلى تعليق الأوصاف بالجهات الثواني دون الأوائل.هذا يعود إلى الطريقة في التصرّف الشّعري التي تؤدي إلى تحقيق بعض مزايا التعبير الأدبي و الشعري، كالمبالغة أو الالتفات...

وتحقق مثل هذه التقنيات الجمالية و البلاغية في الكلام الشعري علامة على قوة في

التعبير من خلال هذه الجهات الثانوية بإمكانات بلاغية مختلفة.

3- لاحظ حازم أن الشعراء يتفاوتون في التصرف في الجهات الأول والجهات الثواني ويقرر أنّ "التفاوت في الثواني أكثر ،لأنّ الجهات الأول يمكن حصرها في كل فن،وأما الجهات الثواني فقلما يأتي حصرها لكثرة ما يمكن أن يستطرد من الشيء إليه، أو يحال به عليه أو يحاكي به أو يعلق على الجملة به لنسبة في المعنى تقتضي ذلك"[4].

وكثرة الجهات الثواني راجعة إلى تعدد المقاصد التي يرمي إليها الشاعر في تعبيره في كل جهة من جهات القول لا سيما الجهات الأول[5].

4- يحدثنا حازم عن تفاوت الشعراء في النظم في الجهات الأول فيجعل الشعراء ثلاثة أصناف أو مستويات هي:

أ-فريق يقتصر على الجهات الأكيدة في الغرض[6]. فالشاعر ضمن هذا التعريف يعبر عن غرضه في القول بطريقة مباشرة، ومن أقرب السبل إلى ذلك، غير مستطرد من معنى ثانوي إلى معناه الرئيسي ،وغير محيل على هذا الأخير بأي طريق من طرق الإحالة التي يلجأ إليها عادة في التعبير الشعري.

ب.فريق يزيد إلى تلك الجهات الأكيدة جهات هي أبعد من غرض الكلام[7].

جـ. وفريق "لا يستوفي جميع الجهات الأكيدة، ويقتصر على ما تيسر له منها"[8].

فهؤلاء الشعراء جميعا (الفرق الثلاثة) يمثلون نوعا واحدا من التصرف في التعبير عن جهات القول في التعبير الشعري.

5- أما النوع الثاني من التصرف، فإنه يتعلق بتفاوت الشعراء من حيث استقصاؤهم معاني الجهة التي يتحدثون عنها في الشعر. والشعراء في ذلك ثلاث طبقات[9]:

أ.شاعر في قوته أن يستقصي معاني الجهة إذا شاء[10].

ب.شاعر لا يبلغ درجة استقصاء معاني الجهة المتحدث عنها، ولكنه يأتي مع ذلك بمقدار كاف من تلك المعاني[11].

جـ. شاعر مقصر، إذ يبلغ مقدار ما يأتي به من معاني الجهة التي فيها القول المقدار الكافي[12].

6-يتفاوت الشعراء في ما يلمحونه من أوصاف الحسن و القبح في الجهات التي يكون القول فيها.وهم باعتبار ذلك فريقان:

أ.فريق يلاحظ في الجهات التي تنعدم فيها صفات الحسن أو تقل الأوصاف التي تبدو حسنة على سبيل الحقيقة أو على سبيل التمويه[13].

ب.فريق يلمح في الجهات الخالية من صفات القبح أوصافا يرى أنّها قبيحة حقيقة أو تمويها[14].

والشعراء عموما ثلاثة إزاء تحسين قبيح أو تقبيح حسن وهؤلاء هم كما يقرر حازم:

أ.شاعر يقوى على حشد ما يمكن أن يوصف به الشيء الحسن من صفة يرى أنها قبيحة حقيقة أو تمويها[15].

وشاعر يمتلك القدرة على إيراد ما يمكن أن يوصف به الشيء القبيح من صفة يرى أنها حسنة حقيقة أو تمويها[16].

ب.شاعر لا يقوى على تحقيق ما حقق صاحباه السابقان[17].

جـ. شاعر يقف موقفا وسطا[18].

7-ويتفاوت الشعراء في تصرفهم في الجهات الثواني بحسب اختلاف قدراتهم لاسيما فيما يتعلق بالقوى "المتخيلة والشاعرة بالمناسبات الواقعة بين بعض المعاني وبعض ،المهتدية لأنحاء الانتقالات الأولى إلى الثواني،و الوجوه التي بها بعضها من بعض بسبب من حيث تعليق المعنى الثاني بالأول، إنما يكون على هذه الأنحاء"[19].والشعراء ثلاثة أصناف، من حيث توفرهم على القوى المذكورة أو افتقارهم إليها، وهم:

أ.صنف حظّه من تلك القوى أوفر الحظوظ[20].

ب.صنف له حظّ ضئيل من ذلك[21].

جـ.صنف يميل الوسط بين الطرفين السابقين[22].

8-كما يتفاوت الشعراء في القدرة على التهدي إلى ضروب الانتقالات اللطيفة ويختلفون أيضا في "ما يعتمدون إيقاعه في الجهات التي يعتمدون فيها القول من الأنحاء المستحسنة في الكلام كالأوصاف و التشبيهات و الحكم و التواريخ"[23].

وراح حازم يلتمس في تاريخ الشعر العربي ما يعزز به فرضيته هذه ، فانتهى إلى تقسيم الشعراء بحسب تفاوتهم في ما سبق إلى ما يأتي:

أ.منهم من تشدّ عنايته بالأوصاف كالبحتري[24]، وبالشبه كابن المعتز وبالأمثال كالمتنبي ،وبالتواريخ كابن دراج القسطلي[25].

ب."ومنهم من يتوفر قسطه من جميع ذلك كأبي تمام، وإن كان غيره أشف منه في التشبيه والحكم"[26].

مما سبق يتضح أن الأنحاء المستحسنة في القول هي الوصاف و التشبيهات و الحكم و التواريخ. ولكن يمكن أن نتساءل فنقول: ما علاقة هذه الأنحاء بالجهات التي يتكلم فيها الشعراء؟

يقدم حازم إجابة مطبوعة بطابع التقسيم المنطقي ذي الأبعاد الثلاثية المشار إليها في سياق التحليلات السابقة.ومن ذلك ما نصّ عليه في قوله: "فأما الأوصاف فتقتبس من الجهات التي القول فيها،وأما التواريخ فتقتبس من غير الجهة التي فيها القول ،وأما التشبيهات والحكم فتارة تقتبس من الجهة التي فيها القول وتارة تقتبس من جهة ثانية"[27].

وفي مايلي الحديث عن تلك الأنحاء من التعبير مع توضيح ما يميز كلا منها عن الباقي:

-الأوصاف:وهي تتنوع "إلى وصف مطلق وإيضافي وشرطي وفرضي،ولكل واحد منها مواضع يليق بها ولا يصلح فيها غيره"[28]. أما الوصف المطلق فهو الذي لا يتقيد بشيء في الكلام.والايضافي هو الوصف الذي يأتي مضافا لغيره.والشرطي هو وصف يأتي باعتباره شرطا لحصول غيره.وأما الفرضي فهو

الوصف الذي يفترض وقوعه في شيء من الأشياء.

-التشبيهات: ومنها "مايتعلق الشبه فيه بالصور و الخلق، ومنها ما يتعلق الشبه فيه بالأفعال والصفات"[29].

والمعيار في تشبيه شيء بشيء يمكن في اتفاقهما في صفة أو أكثر من صفة.

أما الاتفاق في سائر الصفات، فهو غير ممكن لأن حقيقة أحدهما ليست هي ذاتها حقيقة الآخر[30].

-التواريخ والقصص:"إما أن تكون الإحالة فيها إحالة تذكرة أو إحالة محاكاة أو مفاضلة أو إضراب أو إضافة وقد تكون من جهات أخرى غير هذه"[31].

-الحكم والأمثال: وأما أن تكون الأخبار فيها:جارية على العادة، أو خارقة للعادة.

ويؤتى بالحكم و الأمثال على هذه الصورة أو تلك لكي تحمل النفوس على الرهبة مما تجب الرهبة إزاءه، وتحمل على الرغبة في ما هو صالح للرغبة فيه، أو لتقريب البعيد أو إبعاد القريب[32].

تلك هي الأنحاء الأربعة التي يتجه القول الشعري نحوها. وبقدر تركيز الشعراء على ناحية من هذه النواحي، يكون تفاوتهم واختلاف مقاصدهم في التعبير.

ثانيا: أقسام الشعر باختلاف أنحاء التخاطب

يعرض حازم في هذا الموضوع وجهة نظره في قضية التواصل الأدبي بين المتكلم و المخاطب في العملية الشعرية، ويقدم هذا الناقد نموذجا تحليليا عميقا لقضايا التواصل في السياق الأدبي. هنا نعود إلى قراءة نصوص حازم في المنهاج لتتبع معالم نظرته النقدية المتطورة جدا لقضايا التواصل الشعري بمختلف أبعاده النفسية والاجتماعية واللغوية.

يقول حازم:" لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إليها تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب أن

يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه، إما بأن يلقي إليه لفظا يدل المخاطب،إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدي على جهات من التفصيل و البيان والاستدلال عليه والاحتجاج له"[33].

هذا النص يفيد في فهم نظرة حازم إلى عناصر الموقف التواصلي في التعبير الشعري لأنه يكشف عن مواقفه إزاء المعطى الشعري باعتباره كلاما وإزاء وظائف الكلام الشعري وإزاء طرفي المجال التواصلي وهما المتكلم والمخاطب وإزاء الإرسالية الشعرية أو الخطاب الشعري باعتباره معطى يتلون بحسب ميول المتكلم أو رغبات المخاطب في سبيل تحقيق تواصل بينهما في سياق نفسي واجتماعي ووجداني معين.وفيما يلي تحليل ذلك من خلال النص السابق:

1 .إن الكلام دليل على المعاني من المفاهيم المتطورة في مجال الدراسة النقدية بمنظور الدراسات الحديثة[34]

التي تبين أن الكلام علامة على المعنى.فحازم تفطن إلى هذه الناحية واعتبر القول الشعري في أصله مجرد كلام مفيد لدلالة معينة.

2 "....التي احتاج الناس إليها تفاهمها" فهذه المعاني التي يدل عليها الكلام تدخل في إطار ما يحتاج إليه الناس لتحقيق التفاهم فيما بينهم.فالخطاب أو الكلام بين المرسل و المتلقي يكون حاملا لدلالة قصدية أو معنى أو فائدة يريد المتكلم أن يوصله إلى المتلقي.أي تواصل لا يمكن أن يتم على المستوى البشري في نظر حازم إلا إذا روعي فيه الجانب النفعي المحصل عليه بواسطة هذا الخطاب.

من هنا تفطّن حازم للبعد البراكماتي أو التداولي في العملية التواصلية. إن هذا التصور النقدي للتواصل الشعري متطور جدا، ويعكس عمقا في النظرة، ووعيا

بعناصر التجربة الشعرية باعتبارها تجربة لغوية نفسية يكتنفها إطار اجتماعي ومقام خارجي يؤثر فيها وتتأثر به.

3. دور المتكلم والمخاطب في السياق التواصلي، فإما أن يثير المتكلم رد فعل كلامي من طرف المخاطب، أو رد فعل عملي وسلوكي، أو رد فعل وجداني. وتلك هي الأنماط الثلاثة التي تمكن المخاطب من التعبير عن مواقفه إزاء المتكلم في لحظة تواصلية ما.

4. يشير حازم أيضا إلى نوعية الرسالة أو الخطاب الذي يحقق التواصل. فالخطاب الشعري هو الحامل لمضمون الرسالة التي تصدر من المتكلم نحو المخاطب، وقد لاحظ حازم أنّ" الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا (...) يكون مشتكلا...".

أما إذا كان هذا المؤدى بالقول بينا، فإن الشاعر يقتصر على إيراده بصورة مباشرة في الخطاب، أي قصّ الخبر أو الحادثة أو الفكرة.

أما إذا كان هذا المؤدى مشتكلا وغامضا، فإن الشاعر ملزم بأن يؤدي ذلك الغامض على جهات مختلفة من التفصيل و البيان، وعليه أن ينتج أساليب الاحتجاج و الاعتدال إذا لزما لبيان ذلك المؤدى بالقول.

وفي الحالة الأولى، أي بيان المؤدى بالقول، تمر الرسالة من المتكلم إلى المخاطب شفافة وتحقق تواصلا تاما. بيد أنها في الحالة الثانية، عند غموض المؤدى بالقول تتعثر الرسالة وتغلف بأساليب مختلفة قصد إيصالها إلى المخاطب.

أما الأحوال العامة للمتكلم و المخاطب أثناء حصول الاستدلال اللغوي و الشعري، فلا تخرج عن أحوال ستة فيما يقرره حازم، وهي أحوال الكلام أيضا إذا نظر إليه من زاوية المتكلم و المخاطب:

أ.تأدية خاصة: وهي أن يؤدي المتكلم شيئا للمخاطب على مستوى التعبير أو يؤدي المخاطب شيئا للمتكلم بعد فهم الرسالة الآتية من المتكلم (دون إلزام).

ب.اقتضاء خاصة:وهي أن يكون المتكلم يقتضي من المخاطب شيئا، فيحصل

عليه، أو العكس.

جـ.تأدية واقتضاء معا: وهي أن يكون الكلام مفيدا للتأدية و الاقتضاء. والتأدية قد تكون من نصيب المتكلم و الاقتضاء من نصيب المخاطب أو العكس.

د.تأديتان من المتكلم والمخاطب.

هـ.اقتضاءان من الطرفين.

و.تأدية بعد اقتضاء.

ثالثا: المقاصد الشعرية والمنازع (قضية التواصل الأدبي ووضعية المخاطب أو المتلقي)

إنّ قضية التواصل تعتبر من بين القضايا التي أولتها الدراسات الحديثة و المعاصرة مجال اللسانيات اهتماما واضحا.

لاحظنا مما سبق أن حازم القرطاجني يشير إلى وضعية المخاطب في عملية التواصل الأدبي أثناء استماع هذا المخاطب للخطاب الشعري وتفاعله معه في سياق تواصلي معين.كما أنه كان يركز على اختلاف أنحاء الشعر ودرجات تأثيره باختلاف أنحاء التخاطب.

لعل أول إشارة منهجية إلى مسألة التواصل الشعري ترجع إلى"ابن قتيبة الدينوري" الذي تحدث في كتابه "الشعر و الشعراء" عن التواصل الشعري بين الشاعر و الممدوح مثلا،فانتهى إلى حقيقة مفادها أن على الشاعر أن يسير في قصيدته وفق خطة مرسومة سلفا يبدأ فيها بالنسيب ثم يردفه بذكر مشاق السفر، ثم يعرج على وصف ناقته فيبثها أشجانه، ثم ينتقل إلى مدح صاحبه بعد أن يكون قد أثار انتباهه وهيأه نفسيا إلى شعره، فيهز بذلك كله إلى العطاء و السماح[35].

إن ابن قتيبة في هذا الحديث يتطرق إلى أهم قضية التواصل الأدبي، ونعني بذلك نواحي تهيئة المخاطب نفسيا،بواسطة الخطاب ذاته لتقبل المقصود من الخطاب، و الانفعال له انفعالا باطنا وظاهرا على حد سواء.

إن ميل عبد القادر الجرجاني إلى تحليل مسألة التواصل الشعري يظهر واضحا

في تحليله لوضعية المخاطب إزاء النص الشعري،فيقول في هذا الصدد:" وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك، ونشر بزه لديك، قد تحمل فيه المشقة الشديدة وقطع إليه الشقة البعيدة وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد فيه الامتناع و الاعتياص،ومعلوم أن الشيء إذا علم أنه لم ينل في أصله، إلاّ بعد التعب،ولم يدرك إلا باحتمال النصب،كان للعلم بذلك من أمر من الدعاء إلى تعظيمه، و أخذ الناس بتفخيمه، ما يكون لمباشرة الجهد فيه،وملاقاة الكرب دونه..."[36].

إذن فالتواصل الشعري بين الشاعر و المتلقي هو تواصل يختلف باختلاف وضعية المخاطب، من حيث هو متفاعل مع الرسالة الشعرية أو غير متفاعل معه. يحاول الجرجاني أن يقنعنا بأنّ هذا التواصل الذي لا يتم إلا بعد كد وتعب هو الذي يكون فيه المتلقي معجبا بالخطاب الشعري.

وتذهب بعض الآراء المعاصرة إلى التركيز على نوايا المتكلم أو المخاطب، وهي نوايا (Intentions) توجه عملية التواصل وتؤثر فيها.

ويميز أحد الباحثين وهو ڤاردينير (Gardiner)بين النوايا العامة (Intentions générales)، والنوايا الخاصة (Intentions Particulières) في كل عملية تواصل على حدة. ويذهب هذا الباحث إلى التأكيد على أن المخاطب يحتاج إلى تبين النية الخاصة التي يتحدث المتكلم فيما هي متحكمة في خطابه وموجهة له...[37].

ولعل أستين Austin في فهمه لدلالات السياق في الخطاب يثير ضمنيا إلى نوايا المتكلم و المخاطب المتحكمة في توجيه الخطاب.ومبحث البلاغة في نظر أستين هو المؤهل لدراسة هذه النوايا، لا سيما على مستوى الخطاب الإنشائي.ذلك أن خطابا ما في وضعية سياقية معينة قد يقصد به دلالة لا يؤديها مفهوم الخطاب و لا منطوقه، إلا بعد ربطهما معا بوضعية سياقية تكشف الخطاب

وتوجه مقاصده مع الأخذ بعين الاعتبار نوايا المتكلم[38].

وتذهب بعض الدراسات الدلالية إلى الاهتمام بوضعية السياق(Contexte) في دراسة الخطاب، ودراسة مفهوم التواصل Communication، على مستوى الخطاب اللغوي عاديا كان أم أدبيا، وهذه الدراسات تميز على مستوى الخطاب بين ناحيتين:

1-الخطاب المباشر أو الرسالة المباشرة Le message explicite

2-الخطاب غير المباشر أو الرسالة غير المباشرة، وهي ما يحيط بالخطاب أو الرسالة الأولى.وهذه الرسالة غير المباشرة(Le message implicite) تتضمن السياق الاجتماعي و الثقافي لكل تواصل على حدة.

ولا يمكن فهم أي نص ولا التواصل معه تواصلا حقيقيا وناجحا إلا إذا نظر إليه من الزاويتين السابقتين معا[39].

ويعتبر عالم اللسانيات رومان جاكبسون R.Jakobson من بين أكثر اللسانيات اهتماما بتحليل قضية التواصل على مستوى الخطاب الأدبي.فقد انطلق في دراسته للوظائف من الاستفادة من دراسة كارل بوهلر (K.Buhler) الذي وضع مخططا ثلاثيا لدراسة مفهوم الاستعمال اللغوي. وهذا الاستعمال يقوم عنده على العناصر الآتية:

أ.الوضعية اللغوية: La Situation linguistique

ب.المتكلم: Le Destinateur

جـ.المخاطب أو المتلقي: Le Destinataire

وقد وسّع جاكبسون هذا المخطط، وأدخل عليه تعديلات مختلفة، فتحصل لديه نتيجة ذلك مخططه المشهور في نظرية التواصل ووظائف اللغة وهو الآتي[40](*):

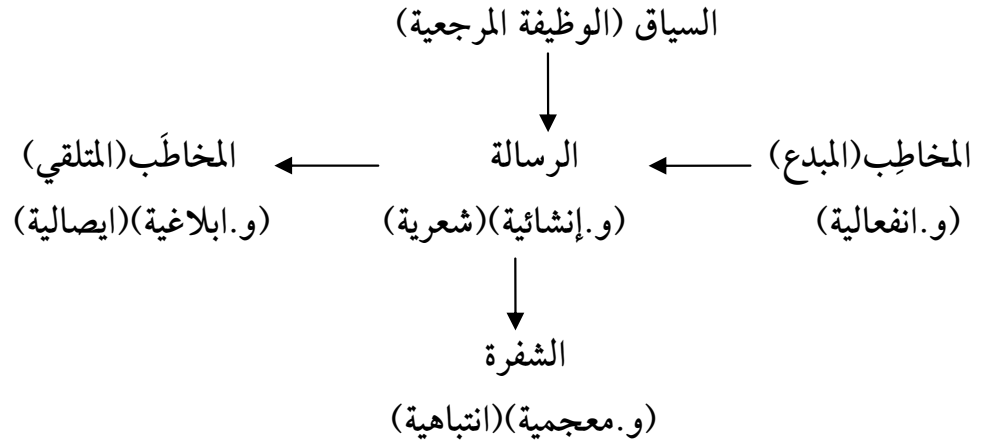

وقد اهتم جاكبسون بدراسة مختلف الوظائف اللغوية وحدد موقفه من الوظيفة الشعرية التي هي وظيفة الرسالة في الخطاب الأدبي.وقد انتهى في دراسته لهذه الوظيفة الشعرية إلى أن الاهتمام فيها ينصب خصوصا على الخطاب من حيث هو لغة شعرية لها مكوناتها اللفظية و المضمونية و الإيقاعية وكذا الباقية التي توطد التجربة الشعرية وتوجهها توجيها محددا[41].

وختاما، تتفق نظرة هؤلاء المعاصرين مع نظرة القدماء من حيث اهتمامها بعنصري التواصل وطرفيه الأساسيين:المتكلم والمخاطب، ثم اهتمامها أيضا بوظيفة السياق ودوره في توجيه التواصل ورسم حدوده. بيد أن الاختلاف واضح بشكل جلي بين تناول القدماء وتناول حازم، وتناول المعاصرين للقضية، وهو اختلاف يتعلق بجوانب التدقيق في مختلف مستويات الموضوع المدروس.

فتناول حازم للقضية اقتصر على الإشارة إلى أبرز مكونات الموقف التواصلي وإن كان يحاول أحيانا أن يشير إلى عنصرية المتكلم أو مقصده في الخطاب. وغاية القول أن الأبحاث المعاصرة في قضية التواصل Communication تستفيد من نظرية الإخبارThéorie de l'Information ،ومباحث فلسفة التواصل والدراسات البراجماتية في حين أن أبحاث حازم في هذا الموضوع تستفيد من مباحث المنطق و الدراسة الأصولية لفحوى الخطاب ومقاصده.

رابعا:قضية المقاصد و الأفعال اللغوية في الخطاب الأدبي

إن فكرة المقاصد كانت معروفة لدى النقاد القدامى مع تفاوت في تعبيرهم عنها من ناقد لآخر.

فالجاحظ يذهب إلى التركيز على مقصد أساس لدى الأديب هو مقصد إفهام المخاطب و إبلاغه محتوى الرسالة الأدبية.ذلك "إن مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع، إنما هو الفهم و الإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[42].

ويرى أبو هلال العسكري أن مراعاة مقتضى الحال في التعبير الأدبي أمر ضروري لتبين مقاصد المتكلم و المخاطب معا في سياق تواصل أدبي معين،حيث"ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما ولكل حال مقاما، حيث تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. اعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال..."[43].

إذا كان حازم قد ميّز في المقاصد بين مقصدين كبيرين هما الجد و الهزل،فإن ابن رشيق يشير إلى مقاصد مختلفة من بينها مقصد الجد وغيره من مقاصد الشعراء التي تختلف باختلاف التجارب الشعرية، "فأول ما يحتاج إليه –الشاعر بعد الجد الذي هو الغاية ، وفيه وحدة الكفاية- حسن التأني و السياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل وخضع وإن مدح أطرب وأسمع وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع وإن عاتب خفض ورفع وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ليدخل إليه من بابه ويداخله في ثيابه.فذلك هو سرّ صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا"[44].

ويقرر كذلك أن شعر الشاعر ينبغي أن يحترم مبدأ مراعاة مقتضى الحال و مبدأ "لكل مقام مقال"، و"شعر للأمير و القائد غير شعره للوزير و الكاتب، ومخاطبته للقضاة و الفقهاء"[45].

إن قضية الأفعال اللغوية عرفت في النقد القديم –تحت عنوان: أغراض القول الشعري ومقاصد المتكلم فيه- كون بعض الدارسين المعاصرين لقضايا المعنى عند العرب القدماء، يعترف بقوله:" إننا نضع هذه التسمية المعاصرة "أفعال لغوية" actes de langage لمجموعة من الظواهر الدلالية sémantiques والبراكماتية pragmatiquesالمتناولة في الإنتاج اللغوي العربي القديم و التي كانت تدرس تحت عنوان "أغراض القول"[46].

إذن فما مفهوم الفعل اللغوي في الدرس البراكماتي المعاصر؟

طور أستين (Austin)البحث في قضية الأفعال اللغوية، بحيث انتهى إلى التمييز بين ثلاثة أنواع كبرى من الأفعال اللغوية وهي:

1-الأفعال الإخبارية، الإنجازية:

وهي مجموعة الأفعال التي توظف في إطار عملية التواصل، ففي حالة المحادثة أو التخاطب، تكون أفعال اللفظ التي يقوم بها الطرفان المتواصلان داخلة ضمن هذا النوع من الأفعال. وقد يدخل ضمنها أيضا بعض الأفعال السلوكية التي يقوم بها أحد الطرفين في سياق تواصلي معين[47].

2-الأفعال الإنشائية:

وهي سائر الأفعال اللغوية التي لا يتم فيها إخبار بشيء معين، وإنما هي تدخل في خانة التعبير البلاغي ذي المستويات الجمالية المختلفة[48].

3-الأفعال غير الإخبارية وغير الإنشائية:

وتشمل سائر الأفعال التي يلجأ إليها المتكلم أو المخاطب ،لضمان استمرار التواصل وإثارة انتباه السامع إلى القول[49].

لاحظ الدكتور أحمد المتوكل في دراسته لنظرية المعنى عند اللغويين العرب أنه تم التمييز بين نمطين من الأفعال اللغوية:

أ-الأفعال المباشرة(Actes-Directs): وهي التي تفهم دلالاتها من الخطاب في حد ذاته.

ب-الأفعال غير المباشرة(Actes-Indirects) : وهي لا تفهم دلالاتها إلا في ضوء السياق الذي يكتنفها.

ويردف أيضا أن دراسة الأصوليين و البلاغيين تقوم أساسا على التفريق بين مختلف الدلالات بحسب معيارين هما:

أ-الهدف الذي يريد المتكلم الوصول إليه، من خلال الخطاب (كأن يعمل الخاطب على القيام بعمل أو يقنعه برأي).

ب-العلاقة الموجودة بين حقيقة الشيء المتحدث عنه في الخطاب وبين مستويات تمثيل هذه الحقيقة على مستوى التمثيل الذهني لدى المتكلم أو المخاطب. ويتم النظر إلى هذه العلاقة في سياق التواصل بين المتكلم و المخاطب لاسيما السياق اللغوي(العلاقات النحوية والتركيبية والدلالية المباشرة)[50].

ومنه فالأفعال اللغوية لدى الباحثين العرب القدماء ترتد إلى نوعين من الأفعال مراعاة للمعيارين السابقين، وهما:

أ-أفعال طلبية Actes de Demande

ب-أفعال وصفية (غير طلبية) Actes de Description[51].

من حدة ثانية، ركزت التحليلات النحوية للأفعال اللغوية على دراسة الدلالات الفرعية dérivées التي تكتسبها الصور الشكلية للخطاب كما أن التحليلات الأصولية تضع فرقا بين دلالة منطوق الخطاب الشرعي ودلالة مفهومه. ولكل واحد من المنطوق والمفهوم في الخطاب الشرعي دلالته المختلفة في الغالب عن دلالة الآخر. أما التحليلات البلاغية، فهي تركز على مبدأ التوليد génération أو التفريع dérivation، أي تفريع بعض الدلالات الثانوية من الدلالة الأساسية في الخطاب الأدبي[52].

وبالتوازي درس القدماء الأفعال غير المباشرة التي لا تكون دلالتها المتولدة من الخطاب في حد ذاته ،وإنما من الأحوال المطبقة بالخطاب ،من سياق ووضعية تواصلية وغيرها من العوامل التي تضفي على الخطاب دلالة أخرى غير دلالته

المفهومة من صورته الشكلية أو الدلالية أو المستفادة من الخطاب في حد ذاته.

فقد يحدث أحيانا على مستوى الاستعمال اللغوي أن يكون خطاب استفهامي مفيد لا لدلالة الاستفهام، وإنما لدلالات أخرى كالطلب requêtes، أو الأمر ordre، أو الإنكار négation، أو التحذير avertissement...

إن هذه الظاهرة قد نلاحظها في خطابات أخرى غير ذات الطابع الاستفهامي. وهكذا فإنّ خطاب آمرا (impératif) يمكن أن يفيد في بعض السياقات دلالات مختلفة غير دلالة الأمر كدلالة الدعاء (prière) أو التهديد (menace) أو التحدي (défi) أو التمني(souhait)[53].

من هنا يظهر أن اهتمام العرب القدماء بدراسة معاني الاستفهام دراسة مستقصية لم يكن اهتماما اعتباطيا، وإنما جاء نتيجة إحساسهم بخصوبة فعل الاستفهام وقدرته على توليد دلالات متنوعة وشديدة التداخل و التشعب.

خلاصة القول، من خلال الملاحظات السابقة، حاولنا التركيز على تحليل بعض جهود المفكرين العرب القدماء في ضوء ما توصلت إليه دراسة الأفعال اللغوية في إطار البحث البراجماتي المعاصرة لا سيما عند أستين(Austin)،الذي لا ننكر ريادته في هذا المجال.

الهوامش:

---

(1).حازم القرطاجني:منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق ودراسة الدكتور محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط2، 1981،ص216.

(2).م.ن، ص216

(3).م.ن،ص216

(4).م.ن،ص216-217.

(5).(6)،(7)،(8)،(9)،(10)،م.ن:ص217.

(11)،(12)،(13)،م.ن:ص217.

(14)،م.ن:ص217-218.

(15)،(16)،(17)،(18)،م.ن:ص218

(19)،م.ن:ص219.

(20)،(21)،(22)،(23)،م.ن:ص219.

(24).ينظر :الأغاني:18/ 167.هدية العارفين:2/ 500

(25).ينظر،كارل بروكلمان:تاريخ الأدب العربي،تر:د.رمضان عبد التواب و د.يعقوب بكر.منشورات دار المعارف،جامعة الدول العربية،مصر.ط2.د.ت، 5/ 121.

(26).المنهاج.ص219.لعل حازما هنا يشير إلى ابن المعتز وأبي العتاهية.

(27).م.ن:220.

(28).م.ن:220.انظر تفاصيل ذلك في الصفحات:98-111.

(29)،(30).المنهاج:220.

(31)،(32).نفسه:221.

(33).المنهاج:344-345.

(34).أول من نبّه على مفهوم الدليل اللفظي الذي يحيل على المعنى أو الفكرة أو المدلول، رائد البحث اللساني "فرديناند دي سوسير":

Ferdinand de Saussure : Cours de Linguistiques Générale. Ed. Payot. Paris. pp : 93-103.

(35).ابن قتيبة:الشعر والشعراء،ص 20-21.

(36).الجرجاني:أسرار البلاغة،ص123-124.

(37)

Communication,n°30,1979,p.96.

(38)

Ibid.pp96- 97.

(39) John Lyons, Sémantique Linguistique, trad :J .Durand et D .Boulonnais. Coll. ''Langue et Langue'' Larousse Université ,Librairie Larousse,1979,p9.

(40) Jakobson, E .Holeinstein, Ed. Seghers.1974.pp.180-181.

(*)،تهدف الوظيفة الانفعالية (التعبيرية) إلى الكشف عن خبايا المبدع، و التعبير عن عواطفه وخلجات نفسه، ورغبته في التأثير في المتلقي. أما الابلاغية (الايصالية): فتهدف إلى إفهام المتلقي مفهوم مضمون الرسالة التي بثّها المبدع، وذلك عن طريق تفكيك الرسالة كيفا يتأثر بها. أما الإنشائية (الشعرية):فتميل جوهر الرسالة التي يحملها الخطاب الأدبي، لأنها الهدف المتوخى.أما

المرجعية: فتحيل الرسالة إلى شخص لتفكيك عناصرها وتوضح الوظيفة المعجمية الشفرة المشتركة بين المبدع و المتلقي، وتسعى لضمان وجودها، بحيث تبقى مفهومة بين طرفي الخطاب.أما الوظيفة الانتباهية، فتحافظ على الصلة كيما تظل قائمة بين طرفي الخطاب أثناء عملية التخاطب.

(41).Ibid, pp184-194

(42).الجاحظ، البيان و التبيين،تح: حسن السندوبي،ط4، 1956، 1/ 99.

(43).أبو الهلال العسكري،الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي،د،ت،ص141.

(44)،(45).ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر ونقده،تح: محي الدين عبد الحميد،دار الجيل،بيروت، لبنان، ط4، 1972، 1/ 199.

(46). A.Moutawakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguiste arabe, éd : 3ème millénaire, rabat, 1982 .p162.

(47)،(48)،(49)،جونتر كارل:التأثير والتلقي(المصطلح والموضوع)،تر:أحمد المامون، دراسات سال،المغرب، 1992،ص10-12.

(50)،(51)، Réflexions ...pp176-177 sur la théorie de la signification

(52) ibid,pp184-185،

(53) ibid,pp 183-184.

المصادر والمراجع

المصدر الأساس: حازم القرطاجني:منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق ودراسة الدكتور محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط2، 1981.

المصادر العربية:

- أبو الهلال العسكري،الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي،د،ت
- الجاحظ، البيان و التبيين،تح: حسن السندوبي،ط4، 1956
- ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر ونقده،تح: محي الدين عبد الحميد،دار الجيل،بيروت، لبنان، ط4، 1972

- كارل بروكلمان:تاريخ الأدب العربي،تر:د.رمضان عبد التواب و د.يعقوب بكر.منشورات دار المعارف،جامعة الدول العربية،مصر.ط2.د.ت
- ابن قتيبة:الشعر والشعراء، دار الثقافة، ط2، 1966.
-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح:الإمام رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر،بيروت، لبنان،1979.
* جونتر كارل:التأثير والتلقي(المصطلح والموضوع)،تر:أحمد المامون، دراسات سال،المغرب، 1992.

المجلات:

- مجلة القلم، العدد10، تونس ،1977 .
- مجلة علامات، العدد13، مكناس،المغرب، 2000.
- مجلة علامات في النقد، المجلد9، الجزء35، مارس2000، جدة، السعودية.

المصادر الأجنبية:

Ferdinand de Saussure : Cours de Linguistiques Générale. Ed. - Payot. Paris.

A.Moutawakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la - pensée linguiste arabe, éd : 3eme millénaire, rabat, 1982.

John Lyons, Sémantique Linguistique ,trad, J.Durand et - D.Boulonnais .Coll. ''Langue et Langue'' Larousse Université ,Librairie Larousse,1979

Jakobson, E.Holeinstein,Ed.Seghers.1974.-

Communication,n°30,1979-